السرد السير ذاتي النسوي في نص "من يوميات مدرِّسة حرّة" لزهور ونيسي

عبد الله بوقصة

المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان/الجزائر

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-04-18	2018-05-28	2018-12-01

ملخص :

تروم دراستنا هذه تحليل بُنى السرد السير ذاتي النسوي في الجزائر. كما تستهدف استكناه جمالياته، واستكشاف دلالاته. وذلك من خلال مدونة سردية سير ذاتية نسوية ظلّت منسية لعقود من الزمن، ألا وهي نص "من يوميات مدرِّسة حرّة" للأديبة الجزائرية الرائدة زهور ونيسي.

ونسعى عبر هذه الدراسة جاهدين من أجل استقراء خطاب الذات، وما يحمل بين طيّاته من مخرون الذاكرة الإنسانية، وميثاق السيرة الحياتية. فإلى أي مدى تمكّنت زهور ونيسي من استحضار بعض محطات سيرتها الذاتية في نصها السردي"من يوميات مدرِّسة حرّة"؟ وهل نجحت في استثمار تلك المحطات في تجربتها السردية النسوية المتميزة؟ وكيف وفّقت بين أدوار: المولِّفة والساردة والبطلة في الآن ذاته؟

كلمات مفتاحية: سرد نسوي، سيرة ذاتية، مدونة، منهج، تجربة.

مقدمة

لعلّ من أهمّ نتائج تنوّع الأجناس الأدبية وتعدّد الخطابات السردية ذلك الثراء الموضوعاتي في فن التأليف، وتلك النقلة النوعية في فعل الكتابة. وقد تمخّض عن هذا الحراك الإبداعي بروز جنس سردي متميز نُعِت بالسيرة الذاتية. وهو سرد ذو صلة وطيدة بالتخييل الذاتي، حيث التماهي بين الأنا الساردة والأنا الفاعلة في الخطاب الأدبي بصفة عامّة وفي النص السردي على وجه الخصوص. إذ يمكن عدّ الأنا بمثابة قطب الرّحى التي تتمحور حولها مختلف أطوار السيرة الذاتية. كما تصنّف السيرة الذاتية سجلا يحمل بين طياته موضوعاتها المتشعبة، وبوتقة تنصهر فيها أفكارها المتّسعة ضمن مجالات محدّدة من التخييل الذاتي الداخلي، قد تستأثره المرأة لخدمة نفسها وبنات جنسها بمعزل عن القضايا الإنسانية العظمى. ثمّ إنّ الكتابة في جنس السيرة الذاتية تندرج ضمن تفاعل فعلَيْن: فعل أول يتعلّق باستحضار الذكريات الماضية. وفعل آخر يتّصل بتثبيت اللحظات الراهنة.

ومن هذا المنطلّق يتأسّس منظورنا في هذه الدراسة التي تروم تحليل بُنى السرد السير ذاتي النسوي في الجزائر. كما تستهدف استكناه جمالياته، واستكشاف دلالاته. وذلك من خلال مدونة سردية سير ذاتية نسوية ظلّت منسية لعقود من الزمن، ألا وهي نص **"من يوميات مدرِسة حرّة"** للأديبة الجزائرية الرائدة زهور ونيسي.[1]

ونسعى عبر هذه الدراسة جاهدين من أجل استقراء خطاب الذات، وما يحمل بين طيّاته من مخرون الذاكرة الإنسانية، وميثاق السيرة الحياتية. فإلى أي مدى تمكّنت زهور ونيسي من استحضار بعض محطات سيرتها الذاتية في نصها السردي"من يوميات مدرِسة حرّة"؟ وهل نجحت في استثمار تلك المحطات في تجربتها السردية النسوية المتميزة؟ وكيف وفّقت بين أدوار: المولِّفة والساردة والبطلة في الآن ذاته؟

سرد نسائي أم سرد إنساني..؟

كثيرا ما تنبري المرأة إلى إنجاز أعمال أدبية إنسانية ذات شأن، فتطرح مسائل شتّى متعلّقة بمزاحمة الأدب الرجالي، والتمايز عنه، أو محاولة منافسته. ونتيجة لذلك أُطلق على المنجز الأدبي الواقع ضمن هذا المضمار: الأدب النسوي، أو الأدب النسائي، أو أدب المرأة، أو الأدب الأنثوي، أو غيرها من المصطلحات.

والناقد الأكاديمي إذ ينبذ مثل هذه المصطلحات، ولسان حاله يردّد: الأدب أدب إنساني، بغض النظر عن جنس مؤلِّفه، فلا يمكن تصنيفه إلى أدب رجالي وآخر نسائي، إنّه ينهض معترفا بأنّ قيمة الأدب في إبداعيته.كما أنّ كلّا من المرأة والرجل هما نتاج المجتمع ذاته، عندما نتمعن في كتاباتهما

سرعان ما نجدهما يشرّحان الواقع الاجتماعي نفسه بخصوصياته وهمومه واهتماماته. ففيم تكمن معايير تقييم الإبداع النسوي؟ وهل ثمّة فرق بين المرأة بوصفها مبدعة والمرأة بكونها امرأة؟ ومتى يؤون أوان الحديث عن سرد إنساني بلا حدود جنسية أو عِرقية أو جغرافية.

وننطلق في مناقشة هذه الإشكالات المتعلّقة بالسرد النسوي على الخصوص من إشكال لغوي يُوجِب أن يكون النسب إلى المفرد، لا إلى الجمع، وبناءً على هذا، يكون الأقرب إلى الصواب أن نقول: السرد النِسوي بدلا من السرد النسائي. بالرغم من أنّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة كان قد أصدر قراراً يُجيز النسب إلى جمع التكسير، وفي ضوئه يصحّ أن تقول: نِسْوِيّ، ونسائيّ على حد سواء. فكان هذا التوجّه تركيزا على **"الانتقال إلى مرحلة اكتشاف الأنوثة بوصفها قيمة خاصة، والاحتفاء بالجسد بعدّه مكونا أساسا من مكونات الهوية الأنثوية".**[2] وتماشيا مع رفض نخبة من الأديبات التعريف التصنيفي للأدب النسوي بناءً على جنس كاتبه، وتأكيدهن على أنّ الأدب جوهره إنساني. انزاح التعريف بالأدب النسوي إلى ذلك التأليف الذي يتناول قضايا المرأة بغض النظر عن جنس مؤلّفه. وحتىّ هذا التعريف الأخير كان أمره جدليا غير محسوم بين مؤيد ومعارض. ولو سلّمنا به لعددنا نصيبا كثيرا من شعر نزار قباني بوصفه شاعر المرأة العربية أدبا نسويا.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الخبرة الأنثوية الخاصّة عن الحمل والمخاض والولادة والرضاعة وغيرها، عندما تتمظهر في كتابات المرأة لا يمكن نجد لها نظيرا لدى كتابات الرجل. ويقول جورج الطرابيشي في هذا المضمار: **"المرأة تكتب بقلبها".**[3] ولكن يظلّ الفيصل في الحكم على جودة العمل الأدبي النص ولا شيء غيره.

هذا وكثيرا ما تتميّز المرأة الأديبة عن نظيرتها العادية، لأنّ الثقافة، التي تنفرد بها، تمنحها أفاقًا ورؤى، ناهيك عن إسهامها في تشريح الراهن بكلّ حيثياته من خلال الكتابة. مثلما تقول زهور ونيسي: **"الكتابة تحيي عظام الكلمات وهي رميم، وتحيي حياة المجتمع وهو ساكن".**[4] ثمّ إنّ نزوع المرأة نحو استعراض أنوثتها في كتاباتها قد يحيل إلى نقص ما يعتري إبداعها. ومن جهة ذات صلة ترتفع أصوات هنا وهناك تعرّف هذا الضرب من السرد النسوي بوصفه انتفاضة ضدّ سيطرة الرجل. ممّا أنتج ضروبا عدّة من السرد النسوي، من قبيل سردٍ تجابه به المرأة سطوة الرجل ، وسرد ثانٍ تستأثره لخدمة نفسها وبنات جنسها بمعزل عن القضايا بالإنسانية العظمى، وسرد ثالثٍ تنتجه المرأة بنزعة إنسانية دون الالتفات إلى الصراع الجنسي. وفي هذا الضرب الأخير ندرج أدبيات زهور ونيسي التي يشكّل فيها الوطن الجزائري بدينه الإسلامي الحنيف، ولسانه العربي المبين، وثورته التحريرية المباركة ضدّ الاستدمار الفرنسي حقلا دلاليا ومعجميا قائما بذاته. ويعدّ نصّها "من يوميات مدرّسة حرّة" أول رواية نسوية جزائرية مكتوبة بالعربية سنة 1979. وكانت المرحومة زوليخة السعودي قد انطلقت في

مشروع رواية، لكنّ القدر قد اختطفها سنة 1972 قبل أن تحقّق حلمها.[5] وها هي ذي أديبتنا زهور ونيسي تتناول موضوع البطش الاستدماري في حقّ رجال حيّها، قائلة: **"قمّة العذاب البشري، ضاع الابن، وضاعت البنت، وضاعت الأرض، وضاع الخبز، وضاعت الصحّة".**[6]

وتذهب الباحثة شيرين أبو النجا إلى أنّ مبتدع مصطلح الأدب النسوي هو الرجل ذاته، وليس المرأة، هذا الرجل الذي حسبها لا يؤمن أحياناً بإبداع المرأة. كما أنّ **"النسوي من منظورها يعني إجمالا إعادة التوازن الفكري والفعلي إلى موازين القوى بين الرجل والمرأة، فالنسوية توجّه فكري لا علاقة له بالجنسي البيولوجي، لذا ينبغي التفرقة دوما بين نسوي (أي وعاء فكرى ومعرفي) ونسائي (أي جنس بيولوجي).**[7] وتردف إذا كانت النساء في مجتمعاتنا الشرقية مقهورات، فالرجال أكثر قهرا منهن، فالقهر بكافة ألوانه: الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي، وغيره، ليس مقصورا على جنس دون آخر. وهو تعاطف جلي للمرأة المبدعة مع شقيقها الرجل، نجد له مثيلا عند زهور ونيسي في نصها "من يوميات مدرّسة حرّة" في قولها: **"إنّني كامرأة أعذر الرجل، فالتركة ثقيلة".**[8]

ومثال ذلك نجده في قوله: **"سأقتسم مع زوجي زنزنته، إذا كان لا يزال على قيد الحياة".**[9]

الرواية السير ذاتية أم السيرة الذاتية الروائية.؟

لعلّه أمرٌ مستبعد الوقوف على تعريفٍ جامعٍ يخصّ الرواية السيرة الذاتية، بوصفها جنسا أدبيا حديثا مقارنة بغيره. والحال أنّ مرد صعوبة التعريف برواية السيرة الذاتية، إنّما يكمن في انفلاتها إلى غيرها من الأجناس الأدبية، وانزلاقها نحو أنواع إبداعية أخرى على غرار الرواية والقّصة والمقالة والمذكرات واليوميات.

ومن أجمل التعريفات الرائدة برواية السيرة الذاتية ذلك الذي قدّمه المنظِّر الفرنسي فليب لوجون Philippe le jeune على **"أنها حَكْيٌ استعاديٌّ نثريٌّ، يَتَّسِمُ بالتماسُكِ والتسلسل في سَرْدِ الأحداث، يقومُ به شخصٌ واقعيٌّ عن وجودِهِ الخاصّ، وذلك عندما يُركِّزُ على حياته الفردية وعلى تاريخِ شخصيتِهِ بصفةٍ خاصة، ويُشْتَرَطُ فيهِ أن يُصَرِّحَ الكاتبُ بأسلوب مباشرٍ أو غير مباشرٍ أنَّ ما يكتُبُهُ هو سيرةٌ ذاتيةٌ".**[10]

كما تعدّ رواية السيرة الذاتية فنا أدبيا يقوم فيه الكاتب بسرد أحداث حياته المتعاقبة، ويسود التركيز فيها على المجال الذي يطغى على شخصية المؤلِّف، فمثلما يغلب على شخصية ما الجانب الأدبي، قد يهيمن على أخرى الجانب السياسي أو غيره، ويسعى الكاتب في ذلك إلى انتخاب محطات مفصلية معيّنة من سيرة حياته، ورصدها بجمالية خاصّة تتيح له فرصة إنجاز نص سردي متكامل

ذي طبيعة أدبية نثرية ونمط سردي حِجاجي، يروم صاحبه الإفادة من كلّ الآليات السردية اللازمة لتطويع نصّه وتعزيزه بالأدوات الفنيّة المثلى. وما فتئ الالتباس يشوب العلاقة بين الرواية والسيرة الذاتية. فالكثير من الروايات تحمل معالم السيرة الذاتية، الأمر الذي أدّى إلى ظهور جنسيْن وسيطيْن هما: رواية السيرة الذاتية Roman autobiographique، والسيرة الذاتية الروائية Autobiographie romanciée . أمّا فيما يتعلّق بالمعيار الأساس للتفريق بين الرواية والسيرة الذاتية، فإنّه يكمن في مواثيق القراءة والتلقي والتأويل. إذ يتمظهر الميثاق الروائي الإبداعي في الجانب التخييلي، في حين **"يتجلى الميثاق السير ذاتي في الجانب الواقعي".**[11]

فالسيرة الذاتية **"هي أن يكتب الإنسان ذاته محطات تاريخية من حياته، فيسجّل حوادثها وأخبارها. كما يسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام صباه وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث"**[12]. وذلك لأن **"السيرة الذاتية الناضجة تطرح عادة مسائل فكرية أو فنية أو اجتماعية دقيقة من خلال التجربة الشخصية للكاتب، ويكون معناها أحيانا أبلغ من أي كتاب فلسفي لأنها تقدم القناعات الفكرية مع إطارها الحي. كما أنها تتضمن اعترافات تتعلق بأعمال فكرية للمؤلف نفسه وتفحصا لمواقف فكرية وفنية سابقة"**[13]. الأمر الذي يرفع مكانتها بين باقي الأجناس الأدبية، بالرغم من أنّ الأدباء لم يلقوا إليها كثيرا من الاهتمام إلاّ في عشرينيات القرن الماضي..

وممّا يصعّب من مهمة الكتابة السيرية ويجعل الأقلام تنأى عن تعاطيها، كونها **"تقوم على الكشف الداخلي والاعتراف ولباقة العرض ولطف الإشارة. وهنا كان يحتاج لشروط اجتماعية مواتية، من أهمها أن يكون المجتمع قد بلغ درجة كافية من التطور والانفتاح تتيح له أن يتقبل اعترافات الكاتب وآراءه وصراحته وتجربته الخاصة بروح من التسامح والتعاطف وتقدير هامش الضعف الإنساني الذي لا بد أن تكشف عنه أية سيرة ذاتية ناجحة"**[14] دون إغفال العادات والتقاليد والأعراف والإيديولوجيات والثقافات التي من شأنها توجّه كتابة السيرة الذاتية. ذلك لأنّ **"كتابة سيرة ذاتية صريحة في مجتمع متزمت مثلا، يمكن أن تتضمن انتحارا على المستويين الشخصي والفني بما قد تجرّه من نقمة على الكاتب لا تتوقف عند إدانته كإنسان"**[15] وعليه يبدو الأمر شبيها بضرب من ضروب المخاطرة خاصّة لدى أديب ذي باع طويل في دنيا الأدب.

وقد أفادت السيرة الذاتية بوصفها جنسا حديثا من المنجز الروائي. وقد بلغت هذه الإفادة حدّ التداخل والالتباس في أحيان كثيرة. إلاّ أنّ المتمعن سرعان ما يهتدي إلى ثمة خلاف واختلاف. فالسيرة الذاتية تبقى عملا ذا بنية مغلقة، ومنتهية بوفاة كاتبها. فهي تفتقر إلى التلقي المتجدّد، والتأويل المرن،

شأنها في ذلك شأن الأسطورة أو الملحمة. أمّا الرواية فتتبدّى للعيان بنية منفتحة أكثر على التلقي المتنامي، والقراءات الجديدة، والتأويل المتغيّر عبر الحقب الزمنية المتعاقبة.

وتتوالى المفارقات بين الرواية والسيرة الذاتية من حيث الخط الزماني الذي يسير في الرواية بشكل منكسر ومتقطّع، ويرتسم في أغلب السير الذاتية بشكل مستقيم ومستمرّ حسب المراحل المتتابعة لحياة أصحابها. وكذلك من حيث الإطار المكاني الذي يبدو خياليا إلى حدّ بعيد في الرواية، ويقترن بالأحداث الواقعية في السيرة الذاتية. وحتّى من الجوانب التقنية السردية، نلحظ الروائي ينتقل من السارد إلى بقية الشخصيات بحسب الأدوار والأطوار والأحداث والوقائع. أمّا كاتب السيرة الذاتية فينهض على أحادية الدور السردي، إذ الكاتب والسارد والبطل كثيرا ما يتمظهرون في شخصية واحدة رئيسة هي صاحب السيرة ذاته الذي ينبري إلى سرد تفاصيل حياته. فـ**"الواقع ههنا هو المحور الأساس في سرد هذه الأحداث"**.[16]

السيرة الذاتية في الأدب العربي.

تألّقت السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث إثر صدور كتاب "الأيام" لطه حسين سنة 1929م، والذي ذاع صيته في الساحة الأدبية والنقدية في الوطن العربي برمّته. كما نشر أحمد أمين كتابه السير ذاتي الشهير الموسوم بـ "حياتي" عام 1950م، وتلاهما إبراهيم عبد القادر المازني في كتابه "قصة حياة" عام 1961م، ثمّ لطفي السيد في "قصة حياتي" عام 1962م، وقد بثّ عباس محمود العقاد سيرته الذاتية في كتابيه: "أنا" عام 1964م، و"حياة قلم" عام 1965م، وتعدّ نوال السعداوي أول امرأة عربية كتبت سيرتها الذاتية فيما نعلم، وذلك عندما أصدرت كتابها "مذكرات طبيبة" عام 1965م، كما ضمّن توفيق الحكيم سيرته الذاتية في كتاب "سجن العمر" عام 1967. وبعد ذلك ظهرت سيرا ذاتية عربية أخرى، أنتجها أصحابها رفعا للتحدي الفني ومسايرة لروح العصر الأدبي، ومنها: "قصتي مع الشعر" لنزار قباني، و"رحلة جبلية..." لفدوى طوقان، و"الخبر الحافي" لمحمد شكري.

السيرة الذاتية في الأدب الجزائري

لعلّ اللبنة الأولى للتأليف السير ذاتي في الجزائر كانت مع رمضان حمود المتوفى في 15 ديسمبر 1929، حينما أصدر عمله الموسوم بـ "الفتى" سنة 1929، الذي يعدّ من البواكير الأولى للأدب الجزائري الحديث. وقد انتظرت الساحة الأدبية الجزائرية حقبة زمنية، قبل أن ينشر القاص عبد المجيد الشافعي ما يشبه السيرة الذاتية بعنوان: "ذكريات من بعيد" في جريدة العبقرية العدد 2 السنة 1 بتاريخ الفاتح من رجب 1366هـ ومن محاولات السيرة الذاتية في الأدب الجزائري ما كتبه البشير الإبراهيمي سنة 1952 من عمل أدبي شبيه بالبطاقة الفنية التي نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عشية انتسابه إليه.

كما لا يفوتنا التذكير بأعمال جزائرية أخرى يمكن أن تدرج ضمن السيرة الذاتية، مثل: "يوميات الوجع" لعمار بلحسن وهو آخر إنتاجه الأدبي، وقد كتبه وهو طريح فراش المرض العضال سنة 1993 م، قبل أن يرحل إلى جوار ربّه...

ولعلّ من أنضج السير الذاتية الجزائرية كتاب عبد المالك مرتاض "الحفر في تجاعيد الذاكرة" الصادر سنة 2003 م، وكذلك كتاب عبد الجليل مرتاض "ما بقي من نعومة أصابع الذاكرة" الصادر سنة 2006 م الذي لا يقلّ عن سابقه نضجا واكتمالا.

ومن الأعمال السيرية النسوية الجزائرية المتأخرة نذكر النص الذي ألّفته الأديبة زهور ونيسي بعنوان "عِبَرُ الزهور والأشواك" –مسار امرأة- الصادر عن دار القصبة 2012 م، وهو العمل السردي السير ذاتي الثاني للمؤلِّفة بعد ذلك الذي كتبته عام 1979م بعنوان "من يوميات مدرّسة حرّة". كما لم يتخلّف الروائي الأعرج واسيني عن الركب كثيرا: عندما أصدر سيرته الذاتية المتميزة الموسومة بـ"سيرة المنتهى... عشتها كما اشتهتني" عام 2014.

وهكذا نجد الأدب الجزائري –فيما يخصّ فن السيرة الذاتية- لم يتأخّر، ولم يتقهقر، وبالموازنة مع نظيره العربي المشرقي، بل وجدناه يتصدّر في بعض الأحيان. ولنا في النص السردي العالمي الأول "الحمار الذهبي" لأبوليوس لكيوس، والنص الروائي المرجعي "حكاية العشّاق في الحبّ والاشتياق" لمصطفى بن براهيم، وأشعار الأمير عبد القادر الجزائري، وكتاب "بذور الحياة" لرمضان حمود ملامح ريادية، ومعالم طلائعية في الأدب العربي بصفة عامّة.

"من يوميات مدرّسة حرّة" بين الميثاق السير ذاتي والميثاق الإبداعي

ينصرف مفهوم الميثاق السير ذاتي -من منظور فيليب لوجون- إلى كونه عقد يبرمه الكاتب مع قارئه، يتم بموجبه تحديد نوعية القراءة وسرعان ما يوجّه القارئ إلى هدف محدّد أثناء القراءة. وينهض هذا المفهوم على أن السيرة الذاتية هي **"نثر استعادي يحكي فيه شخص حقيقي عن حياته الفعلية بصورة تستهدف إبراز حياته الفردية وتاريخ شخصيته الفعلية بشكل خاص"**[17]. ولعلّ من مضمرات هذا العقد السير ذاتي أن يلتزم الكاتب إزاء قارئه بحكي ما حدث في الواقع دون أي انزياح تخييلي أو تمويهي يمكن أن يعتري الممارسة السردية، و**"القارئ محمول على تصديق ما يرويه له كاتب السيرة الذاتية."**[18]

وتندرج السيرة الذاتية ضمن ما يطلق عليه (النصوص المرجعية) كونها شبيهة الخطاب العلمي أو التاريخي في كونها تخبر عن واقع معيش خارج النص ويمكن التحقّق من صحته، بالرجوع إلى مصادر

أخرى من وثائق وشهادات واعترافات. وبذلك ينشطر الميثاق سالف الذكر شطرين متماهيْن: شطر مرجعي، وآخر سير ذاتي.

كما أنّ قراءة نص "من يوميات مدرّسة حرّة" للأديبة زهور ونيسي تضعنا أمام إشكال: التمييز بين ملفوظات من قبيل: يوميات Journal المستلهم بشكل مباشر من عتبة العنونة ومذكرات Memoires. وثمّة خلط لدى القراء بصفة عامة، وحتىّ المتخصصين بين هذين الضربيْن المتقاربيْن من الكتابة، والمتماسيْن لفن السيرة الذاتية، لكنّ الاختلاف بينهما يظلّ قائما. فاليوميات بمثابة سجل للتجربة اليومية، يكتبها صاحبها بوتيرة مستمرة يوما بعد يوم. وتتلاحق أحداثها بسرعة متزايدة وترتيب متسلسل. مثل: يوميات الأديب المصري يوسف السباعي 1959 م. في حين تعدّ المذكرات سردا كتابيا لأحداث عايشها الكاتب، وشهادات تاريخية يرويها بشكل ذاتي. وذلك بخلاف المؤرِّخ الذي يتعامل معها بشكل موضوعي محايد. مثل مذكرات الأديب المصري محمد حسين هيكل 2010م.

لكنّ قارئ نص زهور ونيسي "من يوميات مدرّسة حرّة" يصطدم بنوعين من الميثاق القرائي:

الأول: السير ذاتي، ويتجلّى بين طيات النص في ذلك التطابق بين المؤلِّف والسارد والبطل. وهو التوافق ذاته الذي أعلن عنه نص "من يوميات مدرّسة حرّة" بين كاتبته وساردته وبطلته. وهو توافق قوامه وظيفة التعليم، والنضال ضدّ المستعمر الفرنسي، والانتماء السياسي إلى حزب جبهة التحرير الوطني، دون نسيان مجمل الترتيب السردي لتسلسل الأحداث.

الثاني: المرجعي الذي يحيل إلى واقع خارج النص متمثّل في حوادث تاريخية بعينها من قبيل زمن الاستعمار الفرنسي، وثورة التحرير الجزائرية، وإضراب الثمانية أيام جانفي 1957 م، ومظاهرات 11 ديسمبر 1960 م، وغيرها، يمكن التحقّق من صحتها بالرجوع إلى المصادر التاريخية الأخرى. ولعلّ هذا الصنيع من أديبتنا دليل قاطع على حرصها على إضفاء سيرتها نزرا من المصداقية، ووفائها للعقد المعنوي المبرّم بينها وبين قرائها.

وقد استهلّت الكاتبة نصها بثلاث لزوميات، من شأنها أن تكشف لنا الجوانب الذاتية لفصول هذا النص. إذ تستعرض الكاتبة مراحل من حياتها في قالب سردي. وقد استندت على ميثاق باد للعيان، بإمكانه الكشف عن جنس نصها السير ذاتي. وقد أشارت بصريح العبارة أنّ إنتاجها بمثابة المذكرات الشخصية، وإن كان عنوانه يشِي باليوميات، قائلة: **"ثمّة منطلقات وحقائق ثلاث يقوم عليها جوابنا على سبب هذه المذكرات.."**[19]

إضافة إلى توقّفها عند أحداث تاريخية بعينها لتنتشلها من صرامة التوثيق المنهجي، وموضوعية الشهادات الحية الخاصّة بشخصيات واقعية، ووقائع تاريخية، ومواقف إنسانية، مثل: تصوير زمن

الاستعمار الفرنسي، وثورة التحرير الجزائرية، وإضراب الثمانية أيام جانفي 1957 م، ومظاهرات 11 ديسمبر 1960 م، وغيرها من الأحداث المتعاقبة.إذ تقول: **"هذه المذكرات حوار متصل مع النفس، طال مسافة زمنية ليست قصيرة، عصفت بي وبالمحيط الذي أتفعل داخله أحداث على جميع المستويات والمواقع.. فأول كلمة قيلت في هذا الحوار كانت مع بداية الاستقلال، حتّى لا تجرفها عجلة النسيان ودوامة الأيام".**[20]

وينبغي على القارئ أن يتأقلم مع الميثاق السير ذاتي بما يتضمّنه من تطابق مرن بين المؤلّف والسارد والبطل، فحسب الكاتب أن يعترف بشكل ما أنّه يحكي حكايا حياته، ليهتدي قراؤه إلى أنّ السارد هو الشخصية الرئيسة، وهما ذاتهما الكاتب الذي يضع سيرته بين يدي قارئه. ولعلّ ما يرجح كفة الهوية السير ذاتية لنص "من يوميات مدرّسة حرّة" استعمال الكاتبة لضمير المتكلّم المفرد "أنا" الذي يحيل إلى جمالية السرد السير ذاتي. كما في قول الكاتبة: **"ابتسمتُ وأنا أردّ التحية".**[21] وقولها أيضا:

"-ما لي أنا وما للتفتيش؟

-كلا أنا استخلف المدرِسة فقط".[22]

وبالرغم من ذلك، فالمؤلّفة تصرخ: **"قدّمت هذا النص بصيغة الرواية، وقد أكون لم استند على الحبكة والبطل والعقدة والموضوع، أنّني تمسكت بمقومات الفن الروائي، ولم أمسّه بسوء، وتمسكت بمبادئ الرواية وبالشكل الروائي".**[23] ولعلّ هذا التصريح يندرج ضمن اتجاهات حديثة وحثيثة نحو كسر الحواجز بين الأجناس الأدبية، والخروج بتقاطع أدبي لا مفترق فيه يدعى: رواية السيرة الذاتية، أو السيرة الذاتية الروائية.

واختارت زهور ونيسي لنصها عنوانًا موحيًا، وهو "من يوميات مدرّسة حرة"، وقد يكون الواقع شاهدا على أنّ الكاتبة امتهنت فعلا مهنة التعليم في مدرسة جزائرية حرّة من المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فهو يعبّر عن شخصية الكاتبة وصمودها أمام ما عايشته من هموم واهتمامات قبل استقلال الجزائر. أمّا عناوين الفصول، فنحسبها تجيب عن العديد من الإشكالات المتعلّقة بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه هذا العمل الأدبي؛ إذ نجد عناوين من قبيل **"مدرّسة رغم أنفك/ سقف المسجد/ أعراس الدم/ عندما يذوب الأفراد في المجموعة/ ونجح الإضراب/ الفجر العنيد/ زغرودة الملايين).** وقد تسيّدت مشاهد حوارية ومقاطع سردية من النص؛ مؤكّدة عناصر فنية كالانتقاء والترتيب والتشويق.. وهي سمات مميزة للسرد السير ذاتي. فالنص في مجمله محاولة لتقديم بضعة تجارب حياتية ومنتخبات من خبرات ذاتية عاصرتها أديبتنا زهور ونيسي، وسعت إلى مقاسمتها مع جمهور قرائها بعد ما حفرت في تجاعيد الذاكرة، وسبرت أغوار الماضي.

ونجد أيضا نصا موازيا للنص الأصلي لأديبتنا يتمثّل في الكلمة التقديمية التقييمية التي دبّجها وزير خارجية الجزائر الأسبق الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي. وهي ذات هدف توضيحي لنوع هذا العمل الأدبي على كونه مقاطع من سيرة الكاتبة الذاتية تراوح فيها بين أحداث من أعماق الثورة التحريرية المظفرة، وبين تجاربها الخاصّة وهموم الحياة واهتماماتها. وممّا جاء فيها: **"هو كتاب معلّمة في إحدى المدارس الحرّة التي قاومتها الإدارة الاستعمارية على الدوام، وهذا يعني أنّ هذه الشهادة آتية من معلّمة كانت متفانية في تعليم تلاميذها اللغة الوطنية، والإيمان بالدين الحنيف، وحبّ الوطن".**[24] تعدّ هذه الكلمة التقديمية عتبة من العتبات النصية المحيطة بالنص المركزي، التي تسهم في فهم النص وتحليل بناه، كما تجعل الجمهور المتلقي يقبض على الخيوط الأولية والمعالم الأساسية للعمل الأدبي، فتفضي به إلى التعرّف على محيط النص، وإدراك مقاصد كاتبه، وخطط تلقيه من قبل جمهور القراء.

ينفتح نص زهور ونيسي على قراءات متعدّدة، كثيرا ما تستدعي متعة ذاتية ووعي غيري. فالكاتبة بوصفها معلمة في الواقع السير ذاتي، وفي المخيال الروائي على حدّ سواء، تسعى إلى الذود عن حرمة المدرسة التي يتربّص بها الاستدمار وأذنابه الدوائر من أجل غلقها. إذ تصرخ: **"لا يدري أبدا ما معنى غلق مدرسة بالنسبة لي... إنّه موت على جميع المستويات.."**.[25] وهي صرخة تحمل نوعا من التحدي الإنساني لا الأنثوي. تحدي الإنسان الذي ينحت في الصخر الأصم، ويتشبّث ببصيص الأمل. وهي ذي البطلة تستعيد جرأتها قائلة: **"فتشت عن نافذة زجاجها مكسور وأمرت الطالبات بالدخول... من النافذة المكسورة واحدة واحدة".**[26] لقد حققت جانبا من حلمها في زمن الاستبداد المغلّف بمساحيق إنسانية. **"كنت أشاهد حلمي الذهبي، مدينة من زجاج معبّق بالعطور، سكانها لا يعرفون غير الابتسام ولا يشعرون بغير السعادة".**[27] وهو حلم مشروع من حقّها، ما دامت تمتلك حسّا إبداعيا سرديا، فقلم المرأة يبقى أصدق تعبيرا عن قضايا بنات جنسها. والأديبة تستحضر في مقطع سردي آخر صورة والدتها المقهورة، قائلة: **"شعرت أنّ وجه أمي يكاد ينفجر غيظا، لم تكن ذليلة، ولكنها حكيمة، تترك الأيام وحدها تنتصر لها..."**.[28] ثمّة حل وحيد تقترحه الأديبة لمشاكل الإنسانية جمعاء، إنّه الحبّ. **"حبّ لا يمكن تجسيده ولا إثبات محسوسيته، حبّ كبير عام وشامل جدا. يشمل السماء والأرض والناس وحتىّ الحيوانات.يشمل الماضي والحاضر والمستقبل..."**.[29] **لعلّه حبّ الوطن "ها هو ذا علم الجزائر يرتفع بين يديه، وحمرة الهلال تبدو كأنّها جمرة لهب، ميّزها قلبي قبل عينيّ الدامعتين من الفرحة".**[30] هي الفرحة بالحرية التي تشكّل قيمة الكتابة النسوية من منظور زهور ونيسي، فهي تعيش لحظات الكتابة بوحا ومسؤولية في الآن ذاته، تماما كما تحيّ الحياة، ولسان حالها يردّد: **"لقد أصبحت الساعات التي أكتب فيها هي أسعد الساعات. فعندما تمضي أيام ولا أنجز فيها مشروعا أدبيا، أكون كمن أضاع من عمره جزءا هاما**

ومعتبرا...وهكذا اقتطع من عمره، ليوصله وبسرعة إلى الموت. لقد كانت وما زالت الكتابة بالنسبة لي حياة".[31]

خاتمة

وختاما واستنادًا إلى ما سبق نستخلص نقاطا مهمة نوجزها فيما يأتي:

-لم يحتف النقد الجزائري كثيرا بالسرد السير ذاتي بصفة عامّة، ولم يحفل بالسيرة الذاتية النسوية على وجه الخصوص. وذلك بالرغم من وجود شذرات منها في أعمال سردية كثيرة من قبيل: "من يوميات مدرسة حرّة" و"عِبَر الأشواك والزهور" لزهور ونيسي، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، و"مزاج مراهقة" لفضيلة الفاروق، و"سيرة شغف" لربيعة جلطي.

-تمظهرت ملامح السرد السير ذاتي بجلاء في نص "من يوميات مدرّسة حرّة" من تصوير الوقائع الحقيقية للمجتمع الجزائري إبان ثورة التحرير، ونضال الشعب بمختلف فئاته رجالا ونساء، شبانا وشيابا.

-استعراض الأديبة زهور ونيسي تجاربها الذاتية هو بمثابة تأكيد لكفاءة المرأة وحريتها داخل النسيج الاجتماعي الجزائري، وانتفاضة الأعراف التي ظلّت سائدة ردحا من الزمن.

-السرد السير ذاتي لدى امرأة مثقفة بمكانة زهور ونيسي، بقدر ما هو متنفس إبداعي لها ولبنات جنسها، فهو مشروع قائم بذاته، ومسيرة ثابتة بقيمتها.

هوامش وإحالات

[1] أديبة جزائرية من مواليد مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري، ديسمبر 1936. نالت إجازات في الأدب والفلسفة، وتخصصت في علم الاجتماع بجامعة الجزائر. كما أنّها مجاهدة في ثورة التحرير الجزائرية، تحمل وسام المقاوم. تعدّ من مؤسسي اتحاد الكتاب الجزائريين في عام 1964. وقد أسهمت في التأسيس للإعلام الوطني والثقافي والتنظيمات الجماهيرية والاتحادات المهنية والسياسية. أدارت و ترأست أول مجلة نسائية تصدر في الجزائر من سنة 1970 إلى 1982. انتخبت نائبا في البرلمان الجزائري بغرفتيه: المجلس الوطني الشعبي، ومجلس الأمة. وهي أول امرأة جزائرية تعين وزيرة بالحكومة الجزائرية بعدة حقائب. وقد نالت عضوية اتحاد الكتاب والمجلس العلمي لمركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية.

صدرت لها مؤلفات كثيرة في الرواية والقصة والمقالة. منها:

-الرصيف النائم (قصص 1967م).

-على الشاطئ الآخر (قصص 1974م).

-من يوميات مدرسة حرة (رواية 1979م).

-لونجا والغول (رواية 1996م).

-عجائز القمر (قصص 1996م).

-روسيكادا (قصص 1999م).

-دعاء الحمام (مسرحية 2004 م)

-عبر الزهور والأشواك (رواية 2012م).

[2] عبدالله إبراهيم، السرد النسوي، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2011، ص 217.

[3] جورج طرابيشي، أنثى نوال السعداوي وأسطورة التمرّد، دراسات عربية، ع 2، م 12، كانون الأول، 1975، ص 71.

[4] زهور ونيسي، على الشاطئ الآخر، ش و ن ت، الجزائر، 1974، ص 15.

[5] أحمد دوغان، الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر، مجلة أمال، الجزائر، 1982، ص 09.

[6] زهور ونيسي، من يوميات مدرّسة حرّة، شون ت، الجزائر، 1979، ص 113.

[7] شيرين أبو النجا، نسائي أم نسوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2002، ص 127.

[8] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 13.

[9] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 62.

[10] - فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 22.

[11] جورج ماي، السيرة الذاتية، ترجمة عبد الله صولة ومحمد القاضي، بيت الحكمة، 1992، ص 147.

[12] محمد عبد الغني حسين، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ص 23.

13- حسام الخطيب، أيام طه حسين وفن السيرة الذاتية في النقد الأدبي العربي الحديث "تأليف مشترك. جمع وتقديم عبد النبي اصطيف، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1991، ج2، ص240.

14- المرجع نفسه، ص227.

15- المرجع نفسه، ص228.

[16] . سلطان سعد القحطاني، الالتماس الفني بين الرواية والسيرة الذاتية، مجلة علامات، العدد 55، 2008، ص 219.

[17] فيليب لوجون: الميثاق والتاريخ الأدبي، ص 8.

[18] صبري حافظ، السير الذاتية والشهادات، مجلة ألف، العدد 22، 2002، ص 7- 8.

[19] من يوميات مدرّسة حرة، ص 11.

[20] من يوميات مدرّسة حرّة، الصفحة نفسها.

[21] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 22.

[22] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 23.

[23] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 19.

[24] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 08.

[25] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 66.

[26] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 67.

[27] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 71.

[28] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 77.

[29] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 113.

[30] من يوميات مدرّسة حرّة، ص 130.

[31] زهور ونيسي، عبر الأشواك والزهور، ص 478-479.